

# ألم تقرأ المسرحية من قبل

## «عدو الشعب» على مسرح الباربيكان اللندني



هالة صلاح الدين

لا ربما هناك مسرحيات لا يضجر منها العرب أبداً، ولا تشبخ، تلك التي تفضح الصلات النفعية والاستغلال وتضليل الجماهير، كونها الصفة الغالبة على مجتمعاتنا من بين صفات أخرى سلبية. وأحال كل مواطن عربي بوسعه خلق نسخته الخاصة منها اعتماداً فقط على ذكرياته الشخصية. ولكن حذار، ليس كل صادق يُكرّم على عمله، هل بوسعنا أن نتذكر إدوارد سنودن فاضح المخابرات الأميركية؟ حين كتب أبو المسرح الواقعي الحديث الكاتب النرويجي هنريك إبسن مسرحيته الراديكالية وقثذاك -راديكالية لدرجة عدم تصور مدى توغل الفساد وتعدّد وسائله في مجتمع صغير إبان القرن التاسع عشر- «عدو الشعب» عام 1882، ما دار بباله أنها ستظل وثيقة الصلة بالحياة السياسية ومعضلة التغيير المناخي في عام 2014.

### أين الخلل

عرضت فرقة شاوبونا البرلينية «عدو الشعب» على مسرح باربيكان اللندني بعد تجولها في ألمانيا ومقاطعة كيبيك ونيويورك. بالرغم من موهبة الفرقة التمثيلية وموسيقى بدعية مهترت في عزفها، أتى الحوار ذاته باهتاً أجوف بعض الشيء، لا لخلل أصيل في ترجمة الألمانية ماريا ميلير فيجيفك -وإن تناهت إليّ بعض الجمل قلقة، وكان من الأوفق ولا شك إنتاج نسخة إنكليزية خالصة بدلاً من ترجمة النص عن الألمانية، فلا حقوق فكرية للمسرحية- ولكن لأن مؤلف النسخة الإنكليزية حاول البوح بكل شيء وأي شيء. حاولت الإمساك بخيوط مسرحية تتسع عدة مسرحيات خلال وقت وجيز، أقحمت النسخة الألمانية كل ما يمكن تخمينه عن نيات إبسن الفنية، بل وخمنت نيات غيرها! فظهر طرحها الليبرالي مغروراً فجأ به قدر من الادعاء وتوالت المسرحية كما التخمّة الفكرية مع أن مسرح إبسن يتحلّى في أغلبه بإيجاز لا يعدم الشعرية. ولكن ما علينا! عله في النهاية تراخ نابع من ذاتي المعتادة على الوجبات السريعة والرسائل النصية: ظلت ألتهت بين المشهد والآخر، وجميعها متخمّة بالأفكار المتحلّقة والنظريات عن إثارة المنفعة الشخصية على المنفعة العامة وتضخم نفوذ قادة الأحزاب والهيمنة على منابع الدخل. وكما هو خليق بإبسن لا يفوته أن يلفت وعينا إلى آيات الترف والبدخ التي يدعي ضررها باقتصاديات البلاد وتهديدها للطبقات الدنيا.

### تألق الفساد

يكشف البطل، العالم توماس ستوكمان -ويقوم بدوره الممثل الموهوب كريستوف جاوندا- تلوث المينابيع المعدنية ببلدته النرويجية، منتجعات يأتيتها السياح والمرضى وتوفر أكبر نصيب من دخل البلدية، من جراء ممارسات البعض، ومنهم حموه المذنب غير التائب أكبر ملوثي



تكنيكات المسرح المعاصر لم تعد تشبه تكنيكات تينيسي وويليامز

كما نعرفها الآن- فصرخ: «الاقتصاد ليس في أزمة، الاقتصاد هو الأزمة». جملة سرقها المؤلف من بيان أناركي فرنسي يحمل عنوان «العصيان المسلح القادم».

### المسرح كله

ما عادت تكنيكات المسرح المعاصر تشبه تكنيكات تينيسي وويليامز أو حتى بيكيت، تكاد لا تتقاطع معها في شيء. فقد تجسدت أروع المشاهد في موقع محاكمة الواشي، المسرح ذاته، لا خشبته، وإنما محيطه. حول مخرج العرض الألماني توماس أوسترمير المسرح بأكمله إلى دار البلدية وحث الجمهور على المشاركة في العرض: خصوم العالم يرفعون أيديهم ويبدأ العد، مؤيدو العالم يرفعون أيديهم ويتواصل العد. إنهم ممثلون الآن، يتفاعلون كيفما يحلو لهم، سلباً أو إيجاباً. تخيل إذن طاقماً من الممثلين يتدربون بلا نهاية على مواجهة ردود أفعال متنافرة قد تدبر من جمهور محافظ ببذل رسمية يعترف عن المشاركة أو جمهور مشاكس قد ينقلب مجنوناً بالهاتف الشكسبيرى الغوغائي، «اقتله، اقتله!» وجدت لحظات من التفاعل قد تعيد تعريف فكرة المسرح المعاصر، ولحظات محرّجة أنزلت إلى الكليشيات الكوميديّة غير المعتمدة على

الإطلاق. ولكن على العكس من جمهور إبسن القديم الذي أدار ظهره للشرف، لم يجد جمهور اليوم مناصاً من دعم العالم المظلوم، وهل من اختيار آخر؟ فالجمهور يدرك الحكمة والأحكام الأخلاقية المسددة إلى موقف المعادي؛ فكان من المحتوم دس، وفقاً لما أعلنه المخرج لوسائل الإعلام، بعض المهاجمين بين الجمهور حتى يلتهب الشر وتستقيم الحكمة، وإلا سينتصر الخير؛ فرائت المشاهد ممارس المثالية أو مدعيها يرمق الآخر الشرير بعيون حمراء لا تصدق ولسان حال يقول، «أنت غبي؟ ألم تقرأ المسرحية من قبل؟».

### مفاجآت الجمهور

وهكذا جرى كل عرض متفرداً بذاته مع اختلاف الجمهور يوماً، فلا سبيل إلى توقع مواقفهم التي تقبلها الممثلون بصدور رعب، أو على الأقل هكذا بدوا! انسجم التكنيك ذاته بسلاسة مع البنية المسرحية، إذ لاح كل المسرحيين القدامى غاية في العجز حين استدعينا مسرحيات حاول المخرج فيها تكديس عشرة من الناس بالكاد على خشبة المسرح وتصويرهم باعتبارهم «حشداً»! ليس خيراً جديداً أن يكون فن المسرح التقليدي فناً محدوداً جغرافياً، وبالتالي محدود الأدوات.

” عرضت فرقة شاوبونا البرلينية «عدو الشعب» على مسرح باربيكان اللندني بعد تجولها في ألمانيا ومقاطعة كيبيك ونيويورك

” إن ما لا نرغب في الاعتراف به لأنفسنا هو أن عالمنا حين يطرق الباب في الحياة الحقيقية طالباً الإفصاح عن الحقيقة، لا أحد يجيبه. الرغبة دوماً حقيقية وصادقة في التغطية على الحقيقة والصدق. لا مجال لإزاحة التراب أو قلقة الثابت، فهناك دائماً خسائر.

لقد لعب السياسي لعبته ونفخ الإعلامي بوقه في «عدو الشعب»، ولا نتوقع منهما غير التماهي مع أدوارهما ومصالحهما، ولكن الطين يزداد ابتلالاً حين نعي أن لا صلة ملازمة للتفسخ بالحكم السياسي بقدر ما هو وثيق الصلة بنا نحن. فنحن الداعم والنصير الأول له. إبسن يجاهر بصراحة في وجوهنا، لن يضحى المجتمع بمصدر رزقه دفاعاً عن الحقيقة.



مشهدان من «عدو الشعب» مسرحية لاتزال تثير المشاهد